

د. العمري بلاعدة - جامعة المسيلة - الجزائر

الرحلات الجزائرية الحجازية الرحلة الورتلانية (1) أنموذجا

ملخص

من أدب الرحلات في تراثنا الجزائري الحديث أدب الرحلات الجزائرية الحجازية، حيث ظهرت كتابات عن رحلات قام بها رحالة جزائريون، ولعل من أبرزها الرحلة الورتلانية التي تعتبر من أحسن ما ختم به القرن الثاني عشر الهجري (18م)؛ إذ أسهمت في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لتلك البقاع المقدسة، والأماكن والمدن التي مروا بها، وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، وتقاليدها، وثقافتها، وأحوال شعوبها، وزيارة المعالم والآثار المقدسة، ولقاء العلماء والأفاضل، كما عني ببعض الجوانب خاصة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والأمنية لتلك البلاد. كما تضمنت بعض المعلومات التي لا يستغنى عنها مؤرخ أو جغرافي أو أديب. فهي بحق تعتبر من أوسع البرامج والفهارس العلمية. ومن ثم فالرحلة الورتلانية تعتبر جزءا من تراث الجزائر الثقافي والتاريخي الذي ينبغي أن يهتم به.

تمهيد

أدب الرحلة من الفنون الأدبية والتقاليد العربية التي عرفت منذ القديم، حيث سجل القرآن الكريم أنه كانت للعرب رحلتان في العام من أجل التجارة؛ رحلة من مكة إلى اليمن شتاء، ورحلة في الصيف إلى الشام (2) قال الله تعالى [لِيَلْأَفْهَمَ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ] (3).

وقد كان الغرض من الرحلة قبل الإسلام من أجل التجارة عموما، ولكن بعد مجيئه تعددت دوافعها وتفاوتت مقاصدها، واتخذت شكلا متميزا باعتبارها عملا مدونا ذا طابع علمي وأدبي يتناول الكثير من الجوانب الواقعية، حيث يتوفر على مادة غزيرة تعد من أهم المصادر التاريخية والجغرافية والاجتماعية...

وكما هو معلوم أن الرحلات تختلف باختلاف الأغراض البشرية التي تستدعي القيام بها، فبعضها يغلب عليه الجانب العلمي والتاريخي والجغرافي، وبعضه

الآخر يغلب عليه الجانب الأدبي الوجداني، والبعض الآخر بفرض أداء فريضة الحج، كما يمكن أن يجمع بين أكثر من غرض؛ حيث كان معظم العلماء يستغل رحلته للحج فيلتقي بالعلماء والمشايخ ويأخذ عنهم بمختلف البلاد الإسلامية التي يمر بها أثناء ذهابه وإيابه.

وقد حفل التاريخ العربي بأسماء الكثير من أعلام أدب الرحلة ورواده الذين قاموا برحلات متعددة خارج ديارهم أو داخلها.

والمتمتع لتاريخ الجزائريين يجد أنهم قد أسهموا في هذا الفن مساهمة واضحة خاصة خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م)، ولعلّ من أبرزها تلك الرحلات التي كان يقوم بها الجزائريون إلى الحجاز من أجل أداء فريضة الحج، خاصة وأن الحجاز في نظرهم ليس مجرد بقعة جغرافية تزار للسياحة والعلم ونحو ذلك، ولكنها قطعة أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي والدعوة والأمة الإسلامية(4).

ولعلّ أول رحلة جزائرية حجازية هي رحلة البوني(5) الموسومة بـ”الروضة الشهيبة في الرحلة الحجازية“ (6) لأحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (ت1139هـ)، ثم تأتي رحلة ابن حمادوش (ت1191هـ) المسماة بـ”لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والآل“، وهي في عدة أجزاء لكن الموجود منها هو الجزء الثاني فقط. وأما رحلة ابن عمار الموسومة بـ”نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب“ فلا يوجد منها مطبوعا سوى المقدمة. وأما رحلة أبي راس الناصر(ت1238هـ) التي سماها ”عدتي ونحلي في تعداد رحلتي“ (7) فهي غير متوفرة أيضا. وأخيرا الرحلة الورتلانية للشيخ الحسين بن محمد الشريف الورتلاني التي هي موضوع دراستنا.

الرحلة الورتلانية

الرحلة الورتلانية الموسومة بـ”نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار“ هي أهم رحلة جزائرية حجازية متوفرة كاملة ومطبوعة؛ لذلك نود دراستها، ولكن قبل الحديث عن هذه الرحلة ومضمونها لا بد من التعريف بصاحبها.

ترجمة الإمام الحسين الورتلاني(8)

يمكن تناول ترجمة الإمام الحسين الورتلاني كما يلي:

أولاً: حياة الحسين الورتلاني الذاتية

هو الحسين بن محمد السعيد الشريف الورتلاني، ولد عام 1125هـ الموافق لـ: 1713م ببني ورتلان من بيت علم وفضل وصلاح، حيث كان جدّه قد جاء من ميلة وصاهر أسرة محمد أمقران حاكم منطقة قنزات، وأصبح شيخ علم معروف في المنطقة بفضلته وصلاحه باعتباره من كبار المرابطين.

وهكذا اجتمع لأسرة الورتلاني الدين والدنيا؛ الدين من جهة جده ووالده اللذين كانا من المرابطين، والدنيا من جهة أخواله أولاد أمقران الذين كانوا حكاما وسادة.

تزوج الورتلاني عدة مرات وأنجب أولادا؛ حيث ذكر في رحلته (9) أنه أثناء حجه الأخير أخذ معه زوجته عائشة بنت الفاضل سيدي السعيد، وعيشوشة التي كانت من عائلة أخواله من أسرة المسعود بن عبد الرحمن من بني عيديل، وقد توفيت زوجته عيشوشة في تونس أثناء رجوعه من الحج، وقال عنها أنها كانت تحفظ ربع القرآن كما كانت تحفظ الوظيفة الزروقية (10) وجزءا من رسالة ابن أبي زيد القيرواني الفقهية. وأما أولاده فقد ذكر الورتلاني أنه أخذ معه أحدهم في رحلته (11) إلى الحج وهو محمد وزوجته فاطمة أخت عيشوشة المذكورة أعلاه، وقد كان خائفا عليه من اللصوص في الجزيرة العربية.

نشأ الورتلاني فقيرا وعاش زاهدا سالكا طريق التقشف الصوفي، وكان شديد السطوة والقهر على الجهلة والمتعصبين لا تأخذه في الله لومة لائم، ليله قائم ونهاره صائم:

تَرَاهُ يَصْلِي لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ يَظَلُّ كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ سَائِحَا

كان رحمة الله عليه متعلقا بالله متوكلا عليه؛ حيث يروى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما أكثر من ثلاثمائة مرة، وفي بعضها قال له عند تعلقه به:

تضلع من علم الشريعة بعدما تضلع من علم الحقيقة (12) وتدرعا (13).

كما كانت للورتلاني مساهمات دعوية واجتماعية؛ حيث كان يقوم بإصلاح ذات البين وفض النزاعات بين المتخاصمين وغير ذلك.

حج الورتلاني ثلاث مرات؛ الأولى كانت سنة 1153هـ، والثانية سنة 1166هـ، والثالثة سنة 1179هـ، هذه الأخيرة التي دون فيها رحلته. وقد ذكر الورتلاني بأن وصولهم إلى ديارهم من هذه الرحلة الأخيرة كان ليلة الجمعة وليلة العيد من عام واحد وثمانين ومائة وألف هجرية (14).

توفي الورتلاني رحمة الله عليه في شهر رمضان من سنة 1193هـ الموافق لـ: 1779م عن عمر يناهز 68 سنة.

ثانيا: حياة الحسين الورتلاني العلمية

نشأ الورتلاني في أسرة مشهورة بالفضل والعلم؛ حيث أخذ مبادئ العلم وحفظ القرآن الكريم وهو صغيرا بالمدرسة القرآنية التي كان أبوه قيما عليها، ثم بعد ذلك خرج من بلدته قاصدا مختلف الزوايا ودور العلم المتواجدة بالتراب الوطني وكله شوق للاستزادة من العلم والالتقاء بكبار العلماء خاصة وهو في سن الفتوة والاكتمال البدني، فأخذ الفقه والنحو عن المشايخ، وكذا التوحيد والتصوف، ونال حظا من اللغة والأدب والتاريخ.

وقد تميز الورتلاني بجدّه في طلب العلم وتحصيله ونبوغه في مختلف الفنون والعلوم؛ ممّا جعله يتبوأ مكانا عليا في بلدته، فأصبح من العلماء البارزين، يُرجع إليه في الفتوى وغيرها من المسائل الشرعية، فضلا على أنه كان محل احترام وتقدير من طرف عامة الناس وخاصتهم.

وبعد أن تبوأ الورتلاني هذه المكانة العلمية الرفيعة تصدر للدرس والتدريس، وأصبح شيخا لزاوية الأسرة، كما كانت له زيارات دورية إلى بجاية وغيرها لإفادة طلاب العلم وأهله؛ حيث تتلمذ عليه الكثير بعضهم تولى مناصب دينية سامية.

وبعد أن استوعب علوم وطنه تافت نفسه لزيارة البقاع المقدسة من أجل الحج فكانت له أول رحلة إلى الحجاز سنة 1153هـ، ثم حج مرة ثانية وثالثة، وفي كل مرة كان يلتقي عند مروره بتونس ومصر والحجاز بالعلماء والمشايخ فيأخذ عنهم، حيث ذكر مترجموه بأنه اجتمع بالشيخ الهماق صاحب الطريقة المشهورة بالمدينة المنورة، كما أخذ عن علماء مصر أبرزهم الصعيدي والحفناوي والجوهري والنفراوي والبليدي والصباغ والفيومي وغيرهم كثير ممن أجازوه أثناء إقامته بالأزهر، حيث

بعضهم أجازاه بالعلوم العقلية والنقلية، وبعضهم أجازاه بأوراد الطريقة الشاذلية، مع العلم أن معظم إجازات الورتلاني كانت عن طريق القراءة والملازمة، وقد كان حاضرا معه في هذه الإجازات معاصره أحمد بن عمار(15).

كما اجتمع بكثير من علماء طرابلس وتونس وأخذ عنهم أمثال الشيخ محمد بن عبد العزيز والشيخ عبد الله السنوسي المغربي والشيخ محمد الغرياني والشيخ قاسم المحجوب والشيخ صالح الكواش والشيخ أحمد التيجاني(16).

ثم عاد الورتلاني إلى وطنه بعد أن أفاض عبابه بعلوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ، وجمع بين علوم الظاهر والباطن، غير أنه كانت تغلب عليه الروح الصوفية أكثر من الروح الفقهية.

وقد اكتسب الورتلاني من رحلته علما واسعا وخبرة فائقة، فقرأ وسمع وأجيز، وجرت بينه وبين من زارهم من العلماء محاورات علمية ومساجلات أدبية وشعرية...

ترك الورتلاني مصنفات عديدة ومفيدة معظمها في الفقه والتصوف والتوحيد منها: شرح القدسية للإمام سيدي عبد الرحمن الأخضر، وشرح على وسطى الإمام السنوسي، وشرح على خطبة شرح الصغرى للسنوسي، وشرح على محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، غير أنه مات قبل أن يتمه، وحاشية جلية على حاشية المحقق السكتاني التي وضعها على شرح السنوسي، وحاشية على صغير الخرشي، كما شطر على البردة للبوصيري تشظيرا عجيبا حيث لا يكاد يفرق بينه وبين الكلام الأصلي، وغير ذلك من الرسائل والشرح(17).

الرحلة الورتلانية

لعل أهم وأشهر مصنفات الورتلاني الموجودة بين أيدينا رحلته الموسومة بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" المشهورة بالرحلة الورتلانية.

وقد كان الورتلاني أثناء رحلاته الثلاث يدون ويسجل كل ما يشاهده أو يسمع به أثناء فرصة استراحة القافلة في دفاتر وأوراق على شكل مذكرات وتقييدات حتى لا تفلت منه المعلومات، وبعد عودته إلى وطنه أخذ في كتابة الرحلة

وترتيبها، حيث انتهى من تدوينها ونسخها ضحى الاثنين الفاتح من شهر شعبان عام اثنين وثمانين ومائة وألف هجرية (18).

وصف الرحلة

الرحلة الورتلانية هي أهم رحلة جزائرية حجازية متوفرة كاملة ومطبوعة، وهي بلا شك تعتبر عملا مدونا ضخما اشتهر بين الحواضر والبوادي، حيث وصفها مؤلفها الورتلاني في المقدمة بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بقوله: "...أنشأتُ رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار..." (19). كما وصفها غير واحد، وأثنى على صاحبها كثير من العلماء، حيث يقول فيها الحفناوي: "...فمن تأليفه الرحلة السنية التي سارت بها الركبان، وقد دعا لنسخها ومالكها وناظرها، فهي حصن حصين ودرع متين..." (20). وقال في حقها أيضا صاحب شجرة النور الزكية: "...وله رحلة حافلة في مجلد ضخم سماها نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار..." (21). كما علق عليها محققها العلامة الدكتور محمد بن أبي شنب بقوله: "...أنفس تصنيف رصّعت جواهره في وطن الجزائر، وأعلق تأليف اشتهر بين البوادي والحواضر، لاشتماله على عوارف المعارف، وظرائف الطرائف، وأوابد العوائد وفرائد الفوائد ونسق الأوصاف الكاملة وحلّ المسائل الشائكة، تارة راتعا في رياض الفقه والحديث والتوحيد، وتارة واردا أحياض التفسير والتاريخ والتجويد، وآونة طامحا إلى التصوف والنصح والوعظ باذلا في ذلك كلّ غاية الجهد والنكض، فاصلا جمانه بمرجان الحكايات الأنيقة ومرصّعا وشاحه بياقوت الأشعار الرقيقة وغير ذلك مما هناك..." (22).

أسباب تدوين الرحلة: أشار الورتلاني في المقدمة إلى بعض الأسباب التي دعت به إلى تدوين رحلته، ولعلّ أهم هذه الأسباب تعلّق قلبه بتلك الديار والآثار المقدسة ولقاء العلماء والأفاضل، حيث يقول الورتلاني: "...فإني لما تعلّق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع والقفار والديار والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء من كل مكان من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ والعارفين، والإخوان والمحبين من المجاذيب المقربين والأبرار من المشرق إلى المغرب، سيّما أهل الصحو والمحو...أنشأتُ رحلة عظيمة..." (23).

مصادر الرحلة

صرّح الورتلاني في مقدمة رحلته أنه اعتمد على مصادر مغربية ومشرقية عديدة، حيث ذكر بعضها فقال: ”...مما فتح به عليّ أو منقولاً من الكتب المعتبرة سيّما وإن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا، ومنّ علي الله ثم عليه اعتمادنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، هذا وإنّي أنقل أيضاً من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان، وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرهما مما يناسب المحل...“ (24). وهذا يدل دلالة واضحة على علم الورتلاني برحلات السابقين، وإطلاعه عليها، وعلى غيرها من كتب التاريخ والأخبار.

مضمون الرحلة

تعتبر الرحلة الورتلانية من أنفس ما كتبه الورتلاني وأفضل ما قيده، وهي من جهة أخرى تزهو على بقية الرحلات الجزائرية الحجازية التي من جنسها، فهي بحق تعتبر موسوعة علمية يستفيد منها المحدث والفقيه والصوفي والإخباري والمؤرخ والجغرافي والأديب والشاعر... وهي بحق تكون زادا معرفيا لكل طالب وراغب. يقول الورتلاني في مقدمة رحلته: ”...فإنّها تزهو بمحاسنها كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح به عليّ أو منقولاً من الكتب المعتبرة...“ (25).

وقد صرّح الورتلاني المراحل التي قطعها في طريقه ذهابا وإيابا إلى الحرمين الشريفين مكة والمدينة، ومروره بالأمصار والأقطار التي مرّ بها. ويظهر أن الورتلاني قد سافر برا؛ لأنّه وصف طريقه بالتفصيل.

فقد خرج الورتلاني يوم الخميس لما فيه من التيمن والبركة من مسقط رأسه بني ورتلان قاصدا الحج، وصحبه في قصده إلى الديار الحجازية نضر كثير بلغ الثلاثمائة بين رجل وامرأة من جميع الطبقات والجهات بما فيهم عياله وأولاده، وبعد أن ودّعوا وداعا حارا عائليا وشعبيا، حيث قال الورتلاني حينها (26):
 ما أصعب التوديع للأحباب
 وعنده بالحزن واكتئاب

لفقدان المؤلف باختناق

وكل نفس تزجج للافتراق

و بعد أن تزوّدوا بما يحتاجون إليه من جهاز ومراكب وملابس وخبراء الطريق قصد الورتلاني ومن معه زمورة و قصر الطير ثم الولجة في أرض الحضنة لأولاد دراج ثم بركة ومدوكال ثم بسكرة وطولقة وبعدها عادوا إلى بسكرة للتزود وقضاء الحوائج ثم نزلوا إلى سيدي عقبة فخنقة سيدي ناجي، ثم توزر وقابس وبعد ذلك تابعوا سيرهم على الساحل الليبي متوقفا بطرابلس وبرقة(27). كما وصف الورتلاني مصر وأهلها وعلماءها وعاداتها، حيث يقول: ”فإن عجائب مصر لا يسعها ديوان..“ (28). وقد عني الورتلاني في جميع المدن التي كان يحل بها بوصفها ووصف مساجدها وقبور الأنبياء والصحابة والصالحين والأئمة المشهورين، والآثار المعروفة، والأودية والجبال والآبار وغيرها. كما كان حريصا على الاتصال بالعلماء والأخذ عنهم، والتعرف على وجوه القوم في كل بلد يحلّ به. كما ترجم لكثير من هؤلاء العلماء. وعني في مصر وغيرها من البلاد التي حلّ بها ببعض الجوانب خاصة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والأمنية.

وقد وصف الورتلاني هذه الأماكن التي مرّ بها وصفاً يختلف إسهاباً وإيجازاً وفقاً لأهمية الموضوع، وتختلف المظاهر التي عني بوصفها في المدن المتنوعة أحياناً وتتفق أخرى.

ومن مصر توجه إلى الحجاز، وتحدّث عن ساحل البحر الأحمر، وعن القرى والمدن التي تحاذيه، وعادات القبائل هناك مع ركب الحجيج المغربي والمصري. كما تحدّث كلّما اقترب من مكة عن العيون والآبار والحياة السياسية والزراعية في المناطق التي مرّوا بها.

وقد تحدّث الورتلاني لما كانوا بصدد السّير إلى مكة فقال: ”...وخف على النفس كل ثقل لما قصدناه

سررنا وطبنا حين سرنا لطيبة

وقلنا اجتهد يا سائق الركب إنما تهون المنايا إن بلغنا الأمانيا(29).

كما تحدّث عن دخولهم مكة المشرفة بقوله: ”فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت

النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم، بل قد زال التعب والنصب كأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منحه الله...“ (30).

كما تحدّث الورتلاني عن قضاء مناسك الحج، وتعليل النفس ببعض ما كانت تطمح إليه من قيام بالواجبات وفروض الطاعات في هذا الموسم الخيري العميم، وتجوله في الأماكن والبقاع المقدسة، كما تحدّث عن مكة أيام موسم الحج وعن المدينة وعن عادات وتقاليدها (31)، وعن العلماء والمشايخ الذين التقى بهم. وقد تاقّت نفسه إلى الإقامة بالمدينة المنورة وعزّم على ذلك غير أن أهله لم يتركوه يفعل فاضطر إلى العودة معهم. كما خصص جزءاً في رحلته للحديث عن الحياة السياسية في شبه الجزيرة العربية، وأنها كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، مما نتج عن ذلك كثرة الظلم والاعتداء وفقدان الأمن. وهذا الأخير تحدّث عنه كثيراً، حيث كلّمّا تحدّث عن قافلة أشار إلى أن اللصوص الذين كانوا يترصدون بها الدوائر، أو أخبار الاعتداءات التي وقعت هنا وهناك على القوافل السابقة. كما أشار الورتلاني إلى مقابله لأمير مكة، وما جرى بينهما من محادثات؛ وذلك بسبب إبل ركب الحجاج التي أغار عليها اللصوص، حيث يقول: ”حاصله إني دخلتُ على سلطان مكة المشرفة في داره في منى في بعض الإبل ذهبتُ للحجاج أغار عليها العرب فاستأذنا في الدخول عليه أنا وجماعة من الفضلاء فأذن لي منفرداً في الدخول وحدي، ومن معي بقي عند باب الدار ينتظرون ما أرجع به، فلماً دخلتُ عليه وجدته جالسا على فرش مرتفعة... فلما قربتُ منه تحرك عن موضعه فقبل كتفي وقبلتُ كتفه، ثم قال: ما تريد؟ قلتُ: الجمال؛ لأنّ العرب أغاروا عليها عند البئر الفلانية، وقلتُ له: ألم تعلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ”كلُّكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيته...“ (32)... ثم قال الورتلاني: وقد فرح بي وسرّ سرورا عظيما لما علّم أنّي صاحب علم وانبسط وجهه انبساطا كاملا فتحرك وجدا وقال: نعم فإن دخلنا مكة تأتكم الإبل التي ضاعت لكم واعتذر لي بأن قال: ما ضيّع الأحكام إلا الأشراف فإن أمرهم قد قوي علي وعلى غيري أو كلاما هذا معناه، والله أعلم، وقد سألنا عن وطني ونسبي فأجبت به بما حاصله من عمالة الجزائر، وإنني شريف، فلما أردتُ

الانفصال سألني الدعاء له ولذريته، وقام وودعني توديع الحبيب لحبيبه...“ (33). كما تحدّث عن عادات المصريين مع المغاربة، ثم أفرد الحديث عن أهل بلده الجزائر أثناء الحج ووصفهم بأن فيهم الغلظة والجفاء وسوء الأدب وعدم إزعاجهم للحكم، كما قارن بين الجزائر وتونس و ليبيا فوجد أن الحياة الاقتصادية في البلدين الأوليين أغنى وأخصب، بينما كانت ليبيا تعيش على ما يرد إليها من الخارج، وليس فيها من المناطق الخصبة سوى جزء ضئيل.

كما خصص الورتلاني في رحلته قسما كبيرا لأخبار متصوفة الجزائر، بل إن سمة التصوف ظاهرة في كتابه الرحلة، كما لم يغفل الحديث عن الخرافات والغيبيات والكرامات المنسوبة إليهم. مع الإشارة إلى أن هذه الرحلة لم تسلم من بعض المبالغات بخصوص موضوع التصوف والتعلق بالآثار.

وقد ذكر الورتلاني في رحلته بعض القضايا الشرعية كمسألة شروط الساعة وأقرّ نبوة خالد بن سنان العبسي(34)، وناقش مسألة شرب القهوة وتناول التدخين، وسماع الموسيقى، كما استنكر خروج المرأة متبرجة سافرة، وقطع الميراث عنها في بعض الجهات، وغير ذلك من العادات القبيحة في نظره والتي سماها عمل الجاهلية. كما استنكر بعض المظاهر السلبية السائدة كشيوع الرشوة والمحسوبية، والاستيلاء على الأوقاف وانتشار الظلم والاعتداء على الآخرين.

وقد انتقد الورتلاني في رحلته عدم اهتمام أهل بلده بالتاريخ، وسخريتهم من دراسته ودارسيه، بينما اعتبر الورتلاني علم سير الأنبياء جزءا منه، وفي هذا يقول:” ليس من علم يذكر إذ لا طائل فيه أصلا بل بنفس ذكره عندهم ينكر، وكيف ذلك فإن علم السير إنما هو منه أي سير الأنبياء وشمائهم ووقائعهم وبعوثهم وسراياهم وحجهم وخصائصهم وقصصهم، وقد قال تعالى [وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ...] (35) وإنّ في ذلك عبرة... ولا شك أن هذه الأخبار تكون موعظة للمعتبرين وتذكرة للموقنين وتبصرة للمتفكرين، فمرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ، وهذا العلم يوجب للإنسان قوة في المحاسن وضعفا في القبائح، وبه تعلو الهمة باتصالها بالمعالي من الأمور وتدنو بسفاسفها، وأكثر القرآن من هذا العلم، فمن ذمه يخاف عليه الردة؛ لأنه يسري إلى ذم القرآن إذ أكثره أخبار الماضين وأحوال المتقدمين

من الجبارين الهالكين وأولياء الله الصالحين، فلا تهمل أمرك منه وصحح علمك به...“ (36).

وفي الأخير يمكن القول أنه مما لا شك فيه أن تدوين الرحلات فيه من الفوائد الجمة باعتبار أن التدوين يحفظ العلم، ولذا ضاع علم كثير بعدم تدوين هذه الرحلات. والحق أن الرحلة الورتلانية فيها من الفوائد الحديثة والتحريرات العلمية والاستنباطات الفقهية، والمباحثات، والتراجم والسير، والمطاريحات الأدبية مع العلماء الذين لقيهم في رحلته، كما تضمنت بعض المعلومات التي لا يستغنى عنها مؤرخ أو جغرافي أو أديب. فهي بحق تعتبر من أوسع البرامج والفهارس العلمية؛ وذلك لما اجتمع فيها من تراجم وافية وأسماء وكتب وتآليف ومرويات...

ومن ثم فالرحلة الورتلانية تعتبر جزءا من تراث الجزائر الثقافي والتاريخي الذي ينبغي أن يهتم به الدارسون والباحثون.

كما لا أنسى في الأخير أن أشير إلى أن هذه الرحلة تحتاج إلى دراسات وتحقيقات أكثر عمقا وشمولا.

الهوامش

1. الرحلة الورتلانية نسبة إلى صاحبها الشيخ الحسين بن محمد الشريف الورتلاني، وقد وردت هذه الكلمة أيضا (الورتلاني) بالثاء، وهذا حسب النطق المحلي، لكن النطق بالثاء أكثر شيوعا وأخف، وهو الذي أثبتته محقق الرحلة.
- والورتلاني نسبة إلى بني ورتلان؛ وهي كما ذكرت المصادر التي ترجمت له قبيلة عربية قرب بجاية. وهي اليوم -أي بني ورتلان -دائرة من دوائر ولاية سطيف تقع في الطرف الشمالي الغربي للولاية، تبعد عن مقر الولاية بحوالي 85 كم.
- والرحلة تسمى بـ "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ولكنها اشتهرت بالرحلة الورتلانية. وهذه الرحلة طبعت في تونس سنة 1321 هـ في ثلاثة أجزاء بتصحيح الشيخ الشنوفي والشيخ الأمين الجريدي، لكنها طبعة قد لا يستفيد منها كثير من طلاب العلم؛ لأنها طبعة حجرية، وبالخط المغربي العتيق، ثم طبعت في الجزائر سنة 1326 هـ/1908 م في مجلد كبير، وقراءتها متيسرة لطلاب العلم، وهي في رسمها وصورتها على الحروف المغربية وطريقتهم، وطبعت بعد ذلك سنة 1394 هـ -1974 م في دار الكتاب العربي ببغروت، لبنان. وقد قام بتصحيحها العلامة الدكتور محمد بن أبي شنب رحمة الله عليه. وهذه الأخيرة هي التي اعتمدها في هذه الدراسة.
2. ينظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان: 342/15 - 345.
3. سورة قريش، الأيتان (1 - 2).
4. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 401/2.
5. البوني نسبة إلى بونة المعروفة اليوم باسم عنابة.
6. أفاد الدكتور أبو القاسم سعد الله أن هذه الرحلة مفقودة. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 404/2.
7. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 401/2 - 407. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: 182/1 - 187.
8. ينظر في ترجمته إلى المصادر الآتية: مقدمة مصحح نزهة الأنظار. شجرة النور لمخلف: 513/1 - 514. الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف: 139/2 - 147. الأعلام للزركلي: 257/2. تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله: 401/2. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر لأبي القاسم سعد الله: 187/1 - 188. العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3 هـ) لعمار هلال: 310.
9. ينظر: نزهة الأنظار للورتلاني ص 603.

10. الوظيفة الزروقية هي عبارة عن أذكار وأوراد صوفية نسبت إلى الشيخ أبي العباس أحمد زروق البرنسي الفاسي (ت899هـ) يلتزم بها المتصوفة ، مع العلم أن الطريقة الزروقية تفرعت عن الطريقة الشاذلية التي تنسب إلى أبي الحسن نورالدين الشاذلي من متصوفة القرن السابع الهجري.
11. ينظر: نزهة الأنظار للورتلاني ص 603.
12. علم الحقيقة يأتي في مقابل علم الشريعة ، ويقصد بعلم الحقيقة علم الباطن الذي طريقه التصوف.
13. ينظر: مقدمة نزهة الأنظار. الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف: 140/2.
14. ينظر: نزهة الأنظار ص 704.
15. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 52/2 - 53.
16. ينظر: نزهة الأنظار ص 660 - 661.
17. ينظر: مقدمة مصحح نزهة الأنظار. شجرة النور لمخلف: 514/1. الأعلام للزركلي: 257/2. تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله: 155/2.
18. ينظر: نزهة الأنظار ص 713.
19. مقدمة نزهة الأنظار ص 3.
20. الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف: 141/2.
21. مخلف، شجرة النور الزكية: 514/1.
22. مقدمة مصحح نزهة الأنظار.
23. مقدمة نزهة الأنظار ص 3.
24. المصدر نفسه ص 3 - 4.
25. المصدر نفسه.
26. المصدر نفسه ص 78 - 79.
27. المصدر نفسه ص 80 وما بعدها.
28. المصدر نفسه ص 598 وما بعدها.
29. المصدر نفسه ص 381.
30. المصدر نفسه ص 385 وما بعدها.
31. الحديث أخرجه البخاري في صحيحه: 212/1 - 213. في كتاب الجمعة، باب: الجمعة في القرى والمدن. رقم الحديث (893). ومسلم في صحيحه: 711. في كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم الحديث (1829). واللفظ للبخاري.
32. نزهة الأنظار ص 421 - 422.
33. هو خالد بن سنان بن غيث بن قريطة بن مخزوم بن سنان العبسي عاش في أرض بني عبس، وتوفي فيها بعد إطفائه نار الحرتين، ولقد ورد أن رسول الله ﷺ قال أنه نبي ضيعه قومه، ووفدت ابنته

- على رسول الله، وهي كبيرة في السن فرحب بها قائلاً: مرحباً بابنة أخي. ينظر: الأعلام للزركلي: 2/296.
34. نزهة الأنظار ص 506 - 519.
35. الآية (120) من سورة هود.
36. نزهة الأنظار ص 597.

مصادر ومراجع الدراسة

1. القرآن الكريم.
2. الحسين بن محمد الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بالرحلة الورتلانية. تصحيح الدكتور: محمد ابن أبي شنب. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. الطبعة الثانية: 1394هـ/1974م.
3. ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: 1421هـ/2001م.
4. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري المسمى بالجامع الصحيح. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. الطبعة الثانية: 1423هـ/2002م.
5. أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم المسمى بالجامع الصحيح. اعتنى بطبعه وراجعاه: هيثم خليفة الطعيمي. المكتبة العصرية، صيدا. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: 1422هـ/2001م.
6. محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. تعليق: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: 1424هـ/2003م.
7. خير الدين الزركلي، الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. الطبعة السابعة: 1986م.
8. عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية: 1995م، الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر.
9. محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، الطبعة الأولى: 1402هـ - 1982م. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
10. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. الطبعة الثالثة: 1990م.
11. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1401هـ/1981م.